دراسة وتحليل

الجواهري شاعر العراق

للأستاذ محمد رجب البيومي

— ٢ —

ونترك كارثة فلسطين لننتقل إلى أذناب المستعمرين …

ولا تكاد تخلو إحدى قصائد الشاعر من تجريح هؤلاء الأذناب والتشهير بهم ، بل إن إنجلترا الغادرة لم تنل من الشاعر ما ناله أذنابها المتزعمون ، وللجواهري وجهة نظره الصائبة في ذلك ، فالإنجليز مهما عصفوا بالشرق والإسلام ، وناهضوا الحريات بشتى الوسائل ، فهم يخدمون وطنهم بما يرونه من الأساليب الظالمة ، أما هؤلاء الأذناب فخائنون آثمون يشنون الحرب على بلادهم ، ويصادرون حرياتها وكرامتها في غير هوادة وإشفاق ، وقد يبلغ بك الأسف أشده إذ تجد الشاعر يقارن بين عهدين، عهد برز فيه الاستعمار سافراً بوجهه الدميم، يأمر وينهى ويسلب ويبتز ، وعهد رجع فيه المستعمر إلى الوراء خطوة ، ووقف خلف ستار رقيق شفاف ينظر ما ينفذه صنائعه من تعسف وبطش ، وقد أخلى الطريق أمامهم فما استثمروا عاطفة نبيلة ، أو أحسوا بواجب قومي ، بل صالوا ذئابا نهمة جشعة ، وعاثوا أضعاف ما عاث المستعمر الظلوم ، وانطلقت المطامع من مكامنها تتفجر وتتدفق وكانوا ستاراً لعورات المحتل ومثالبه ! حتى فضل الناس أن يعودوا إلى العهد الأول فيقابلوا الاحتلال وجها لوجه ! ! إذ رأوا بعد التجربة الأليمة أن افتراس الفهد أهون من افتراس الجرذ ، فأضحت أمنيتهم أن يضعوا الصفاد بأيديهم من جديد ، وكانوا يشتكون الجدب والمحول فرأوا من هؤلاء المتوزرين جرادا يستأصل ما بقي من الغصون والأوراق، بدل أن يهطلوا غماما ينعش الأرض ويسق الزرع ويضاعف الثمرا

غمرنا بالحضارة ساحليه	فما عيا بحائطها اضطلاعا
توارثناه أبلج عبقريا	ذلول المتن منبسطاً وساعا
ترى حافاته انفجرت عيوناً	ورفت من جوانبه ضياعا
فلازدنا الكتاب الفخم حرفاً	ولازدنا المصور الزهر ساعا (٢٢)
عقدنا معقد الآباء منه	فكنا البهم قد خلف السباعا (٢٣)
كأن الشمس مسلحة أضاعت	مغيفاً في ظلاله شعاعا
تحجب عن بحار الله حتى	إذا خطرت به نضت القناعا
وما رأت العيون أجل منها	على أجزاء هيكله الملاعا
فما كشروقها منه نعيا	ولا كغروبها فيه متاعا

* * *

هذه عصماء شوقي التي قالها في تكريم الشاعر الكبير المرحوم عبد الحميد بك الرافعي وهي كما يراها القارئ الكريم نفحة خالدة من نفحات شاعر الشرق الخالد الذي لم يك شاعر مصر وحدها بل شاعر الإنسانية برمتها وإن حدد هو فقال :

كان شعري الغناء في فرحة الشرق وكان البكاء في أحزانه

ومثل شوقي يظل خالداً خالدات الشموس تدور في أفلاكها . وفي العدد القادم إن شاء الله أقدم « شوقية أخرى »

(٢٢) ساعا : جمع ساعة

(٢٣) البهم : صغار الضأن

وليس الجواهري سادرا في خياله ، بل إنه يضع في يد قارئه الحجة ، فيتساءل عن حرية النقد التي كانت تجد مجالها في عهد المستعمر، فلا يرى لها صدى يتجاوب، وينظر إلى السجون والمعتقلات ، فيراها تستقبل أضعاف من كانت تستقبلهم قبل ذلك ؟ فليذرف الشعر دمعه الغزير على الشرق الكليم، وما يوجه إليه من طعنات قاتلات :

فكم في الشرق من بلد جريح	تشكى لا الجروح ولا الضمادا
تشكى بني متقاد بغيض	تأبى أن يطاوعه انقيادا
فكانت حيلة أن يقتطيه	رضيع لبانه نبغى وزادا
صدى للأجنبي ورب ثغر	أعاد صدى فسر بما أعادا
فكانوا منه في العورات سترا	وكانوا فوق جمرته رمادا
تروى من مطامعه وأبقى	لهم من سؤر ما ورد الثمادا
وكان إذا تهضمه غريب	أقام له القيامة والمعادا

فأسلمه الغريب إلى قريب ... يسخره كما شاء اضطهادا
فبئس منى لمصفود ذليل ... لو ان يديه لم تضع الصفادا
وبئس مصير مفترشين جرا ... عليهم لو افترشوا قتادا
وكانوا كالزروع شكت محولا ... فلما استمطرت قطرت جرادا

والشاعر ذو نظرة واعية فاحصة ، فهو ينظر إلى أعمال هؤلاء مدركا عللها وأسبابها ، وقد فطن إلى أن المدرسة الاستعمارية التى تخرج المستوزرين فى شتى الأمم العربية مدرسة واحدة متفقة المناهج والأساتذة ، حتى لكأنها توزع من هؤلاء نسخا مطبوعة على الشرق ، وفى سطور كل نسخة وظروفها ما يتفق ومبادئ الاحتلال وأغراضه ، ويتضح هذا بجلاء فى قصائد الشاعر ، فأنت ترى ما يمثل فى العراق نظير ما يمثل فى كل قطر شقيق .

وسيعرض لنا الشاعر فى قرائده رواية محبوكة الأطراف ، منسقة الفصول ، وقد استمدت أبطالها وحوادثها مما يجرى فى الشرق الصريع من محن وأرزاء ، وهو بعد موفق فى مسرحيته ، بارع فى أدواره إلى حد كبير ، وسأدير لك الشريط لتجد فى الفصل الأول مالا يغيب من ذهنك من ألاعيب الاستعمار فى كل قطر منكوب ، فأنت أمام مستوزر بغيض يعرف ما يكنه له الشعب من احتقار وازدراء ، فيقابل ذلك بالبطش العنيف ، والرقابة المليئة بالدسائس والمؤامرات ، فإذا أراد أن يختلق مايبرر فظائعه الآثمة لجأ إلى الدستور فأخضع نصوصه الفضفاضة إلى ما يريد من تعسف وإرهاق ، وأوجد الشروح المتكلفة ، والتفاسير المموهة ، ممهورة بأسماء قانونية يغريها الذهب والمنصب والجاه ، فتحيل النهار ليلا والحق باطلا ، فإذا وجد الحجة القانونية الموهومة فى يده ، لجأ إلى المجلس النيابى فبدده فى طرفة عين ، وشرد أعضاءه الأحرار ، وأخذ يتحدث عن الحرية والمساواة والنزاهة ، وأجرى انتخابات باطلة زائفة ، وقد حشد لها رهطا من الأنصار والأشياع ، فإن تجاوزهم فإلى فريق وصولى تمشى يروح مع الذئاب ويغدو مع الرعاة ، وبذلك يضمن الحجة الدستورية لبقائه فى المنصب ، دون أن يخذل أولياء نعمته من المستعمرين ، فيسوق إليهم ما يريدون ، وفوق ما يريدون ، وإن جر على بلده النكال والوبال ، هذا الفصل الموصف من الرواية يمثل فى كل قطر نكب بالاستعمار ، وإن الشاعر ليبرزه بوضوح إذ يقول على لسان أحد هؤلاء :

تحدث الورى بالظن أحصى خطاهمو ... وروعت لدقات القلوب عصائبا
ولم أر الإثم الفظيع ارتكبته ... سوى أننى أديت للحكم واجبا
لجأت إلى الدستور فى كل شدة ... أفسر منه ما أراه مناسبا
أكم به الأفواه حقا وباطلا ... وأخنق أنفاسا به ومواهبا
أهدم فيه مجلسا لا أريده ... وإن ضم أحرارا خيارا أطايبا
وأبنى عليه مجلسا لى ثانيا ... أضيع أملاكا عليه رواتبا
وأحشد فيه أصدقائى وأسرتى ... كما ضم بيت أسرة وصواحبا

فإذا أنهى الفصل الأول من المسرحية أدار الشريط مرة ثانية . فطالعك فى الفصل الثانى بفريق من المستوزرين جذبهم الاستعمار إلى موائده، وأظهر لهم العطف الزائد والحب الأكيد لبلادهم ، ورآهم أهلا لمحالفته على البأساء والضراء ، وأبرم معهم وثائق خادعة، ظاهرها الرحمة ، وباطنها العذاب ، فطار بها الأغرار كل مطار ، ورجعوا إلى بلادهم يتشدقون بالعزة والحرية والاستقلال ! ويدعون أنهم أنقذوا الوطن من براثن الاستعمار ، إنقاذاً مشرفا يتفق وكرامة البلاد ، فإذا حزب الأمر وتغير الوضع الدولى ، تنكر الحليف لوثائقه ، وسخر بأذنابهم وحلفائه ، وأخذ يفسر النصوص تفسيراً مجحفا ظالما وطالب بحقه كصديق محالف فى الابتزاز والاستلاب ، وهنا فقط يتيقظ النائمون من رقدتهم فيرون فى الوثائق أغلالا خانقة ، وقيودا ثقيلة مرهقة ، فيتنصلون مما اقترفوه ، كمولود تحدر من سفاح ، ويلصق كل فريق جريمته بأخيه ، ويعرف الجميع أن معاهدة الذئب للحمل ما كرة باغية ، ولا سبيل إلى مصادقة غريم يهدد صاحبه بالحق الذريع ، ثم يضحك الشاعر من غفلة هؤلاء الذين لايلمسون بداءة الأشياء فيتخبطون تخبط العشواء ، حتى يفجأهم الواقع

المرير عما لا ينتظرون ، هذا هو الفصل الثاني من الرواية السياسية المؤلمة وأظن القارئ قد تشوق إلى رؤيته فلينظره في هذه الأبيات

ووضـع أمس كلهمو لواه ... به واليوم كلهمو لواحي
تنصل منه زورا صانعوه ... كمولود تحدر من سفاح
وذموا أنهم كانوا عكوفا ... عليه في الغدو وفي الرواح
وتأريخ أريد لنا ارتجالا ... فآب كما أريد إلى افتضاح
شحنا دفتيه بمنمنمات ... (كأحداق المهى مرضى صحاح)
وغلفنا مظاهره حسانا ... مزخرفة على صور قباح
وأحللناه وهو ضريع شعب ... محل الوحي جاء من الضراح
نجرعه زعافا ثم نضفي ... عليه محاسن الشيم القراح
ورب صفقة عقدت فكانت ... كتحريم الطلاق على النكاح
تدبر في العواصم من مريب ... خبيث الذكر مطعون النواحي
يفوح الجمر منها في اختتام ... ويبدو البتر منها في افتتاح
ويسفر نصها المسوء خزيا ... ومظلمة عن الغيد الملاح
وحلف است أدرى من ذهول ... أعن جد ينفذ أم مزاح
لنا حق يرجى بالتماس ... وباطلهم ينفذ بالسلاح
ولست بعارف أبداً حليفاً ... يهدده حليف باكتساح

ثم يدور الشريط فيعرض لك المؤلف فصله الثالث والرابع والخامس حتى تنتهي المسرحية الأليمة بانتهاء ديوانه ، ولن أجد من نفسي الرغبة في تتبع الفصول وتحليلها تحليلا يرشد إلى كوامنها السياسية ، فهذا ما لا يغني عن قراءة ديوان الشاعر بجزءيه الكبيرين ، وبخاصة إذا كان الحديث عن هؤلاء الأوشاب يسجل أكثر قصائد الديوان ، سواء أكانت في الرثاء أو السياسة أو الاجتماع ، فهم القاسم المشترك في كل ما يجلب الكوارث على البلاد ، وقد وصفهم الشاعر بما لا يعد مبالغاً فيه ، وصور الحقد في نفوسهم . ورسم القطوب والعبوس والانقباض ، وجميع ما يلوح في وجوههم الانفعالات والغضون ، وتهكم بنزاعهم المتعصب وجاههم الزائف وشهواتهم الجامحة العاصفة ، ونظر إلى أوسمتهم اللامعة نظرات أطفأت ما بها من تألق وبريق ، وحسبك أن يقول :

تداول هذا الحكم ناس لو انهم ... أرادوه طيفا في المنام لخيبوا
ورب وسام فوق صدر لو انه ... يجازى بحق كان بالنعل يضرب
نشاربه بين المخازي وراقه ... وسام عليها فهو بالخزي معجب

ولن نترك ما قاله الشاعر في أعداء الشعوب دون أن نشير إلى سخريته الهازئة من أمانيهم الخادعة ، وعجبه لغفلتهم عما يتهددهم من مصير أليم ، وترقبه الساعة الفاصلة التي تستيقظ فيها الشعوب النائمة على صوت لجب صاخب يبعث بها التوثب والطموح ، فتندفع هائجة إلى فلول الملونة من الأذناب ، فتدوسهم بالنعال ، وتطؤهم بالأقدام، وكم يؤلمك أن يتمنى الشاعر من هؤلاء أن يقتدوا بإنجلترا ! فيهادنوا المرونة والرجولة ، ويجاريوا العقائد والمذاهب ، وأنى يكون ذلك ، والشعب البريطاني يقظ متوثب ، يقدر زعماؤه كرامته وحيويته ، أما أذنابهم في الشرق فلا يعترفون بحمية وإباء ، فصادروا الحريات ، وكموا الأفواه ، فانطلق الجواهري يقض مضاجعهم ، ويكشف الأستار عن مثالبهم الفاضحة إذ قال :

ولقد رأى المستعمرون فرائسا ... منا وألفوا كلب صيد سائبا
تعهدوه فراح طوع بنانهم ... يبرون أنيابا له ومخالبا
مستأجرين يخربون بيوتهم ... ويكافأون على الخراب رواتبا
الشاربين دم الشباب لأنه ... لو نال من دمهم لكان الشاربا
والحاقدين على البلاد لأنهم ... حقرتهمو حقر السليب السالبا
ولأنها أبدا تدوس أفاعيا ... منهم تمج سمومها وعقاربا
شلت يد المستعمرين وفرضها ... هذي الملوق على الدماء ضرائبا
ألقى إليهم وزره فتحملوا ... أثقاله حمل الثياب مشاجبا
وأذابهم في الموبقات فأصبحوا ... منها فجورا في فجور ذائبا
يتمهل الباغي عواقب بغيه ... وتراهمو يستعجلون عواقبا
حتى كأن مصائرا محتومة ... سودا تنيلهمو منى ورغائبا

يتبع

محمد رجب البيومي